على هامش الأدب والنقد

تأليف الأستاذ على أدهم

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

الأستاذ على أدهم واسع العلم عريض الاطلاع عميق التفكير؛ أعنى أنه جمع الأبعاد الثلاثة فى حيز ذهنه، وأبى إلا أن يجمعها بالبعد الرابع لكى تستوفى النسبة قسطها من قلمه، وهو فيض الإنتاج. فقد أخرجت المطابع له إلى الآن ١٢ كتاباً. والله يعلم بما عنده من كتب أخرى معدّة للطبع.

وقد قرأت أمس له كتاباً ممتعاً عنوانه «على هامش الأدب والنقد» افتتحه بفصل «النقد والشخصيات» وإذا به يستفيض فى الأدب النفسى بحيث يجرد الأديب والعالم عن أنفسهم ويجعل لهم كياناً غير شخصيتهم. والنقد يتوجه إلى هذا الكيان.

ثم تناول التقدير الفنى بين النظريتين العلمية والفنية. وبسط الفرق بين العلم والفن ببحث جامع مانع. ثم عطف على فن كتابة التراجم وبحث نشأته وما طرأ عليه من تطور فى الكتب المقدسة فى الصين والهند ومصر الخ. واسترسل إلى العصر الحاضر.

وفصله فى النقد الفنى بين المذهب الاجتماعى والفردى دفعه إلى قياس الفلسفة النفسية والعقلية والفلسفة العامة فأعطاك دراسة فيهما لا أظن أن لها ضريبا فى مباحث الآخرين، إلى أن ساقه البحث إلى الكتب والكتاب، ثم ارتفع به إلى أثر النبوغ والعبقرية فى الأدب والفن، وشرح لنا الفروق بينهما. وهو بحث لا تملك فلسفة عميق. إلى أن قذف به النقد إلى دار الشيطان (أعيذه منها) فى الشعر الحديث. وقد راجعت هذا الفصل مرتين لما وجدت فيه من متعة عقلية ونفسية.

ثم تساءل قائلا: هل تجدى مطالعة التاريخ (الفقير بالحرافات) وهناك أبحاث لا تخطر لك على بال تدلك كيف بدىء التاريخ منذ ثمانمائة سنة ميلادية. وهى بدء الكتابة بالحروف الصوتية التى يقال إنها من اختراع الفينقيين. وجرى على ما اعتور التاريخ من الغث والسمين والحق والباطل والعلم والجهل إلى غير ذلك من طبائع التاريخ.

ثم تحول من هذه المباحث العلمية النقدية إلى نقد المتنبى الشاعر العظيم، وشرحه تشريحاً نقدياً وكشف لك عن سريرته ودل على قلبه ونزعته وطموحه فوصفه فى تدينه وفروره وحزمه ومكانته فى أهيل عصره (كما يسميهم هو) ونظريته فى حساده؛ حتى إذا خرجت من هذه النقدات التى كانت كمدى المشرح فى البدن السمين ظهرت لك أخلاق المتنبى ونفسيته وانجلى لك المتنبى الحقيق كأنك عشت معه.

ثم مال أبو تمام قسطاً من نقده فقابل بينه وبين المتنبى بحيث ترى أن أدهم دخل إلى سريرة هذين الشاعرين العظيمين وظفر بمزية كل منهما فى الشعر.

ولم يحرم الشاعر ابن هانئ من كلمة فلسفية رائقة فيه، ويريك أن شعره ينزى بالأبيقورية، وهى أن الحياة فى نظره فترة قصيرة ونهزة عارضة ... وليست جديرة بأن يقضيها المرء فى طلب الغايات البعيدة وليس فيها أعماق سحيقة ترهب الناظر. وفى الوقت نفسه كان يقنص اللذات؛ فهو يعيد حياة سليمان الحكيم الذى ماترك متعة إلا تمتع بها، وأخيراً قال: باطل الأباطيل، الكل باطل.

ولأدهم بعد ذلك فذلكات عن سير بعض الخلفاء. وفذلكة عن أدب رابندرات طاغور الشاعر الفيلسوف الهندى الذى هو خير أنموذج للأدب الوطنى.

فى هذا الكتاب الفذ فى موضوعاته ومباحثه تجلت مقدرة الأستاذ على أدهم فى التفكير والتعبير والتحبير.

روضات الفردوس:

ثم إن الأستاذ على أدهم أتحف اللغة العربية تحفة نادرة المثال فى كتابه الأخير روضات الفردوس وهو محاضر مناقشات لأرواح

أعلام التاريخ فى جميع المذاهب الاجتماعية المختلفة . وقد تولى العالم جيتى رئاسة هذا المجلس الخيال . وكان أبرز المتناقشين فيه كارل ماركس أبو الاشتراكية . وقد احتدم النقاش بينه وبين فولتير فيما آل إليه الأمر فى روسيا عن يد لنين الذى اعتنق إنجيل ماركس بحروفه ، وخواه أن الاشتراكية لاتقوم على يد الأكثرية فى البارلمان بل على يد الثورة .

وكانت مارى ستيورت ملكة فرنسا وسكوتلاندا فى هذا المجلس الروحانى ، وكانت كل هنيهة وأخرى ترمى كلمة تحاول بها أن تزج نفسها فى المناقشة ، ولكنها كانت كالسيدة التى تشتغل فى التريكو تقول الكلمة وتخاف أن تخطىء فى القطبة .

والعجيب أن نابليون تكلم فى الخلق . وعنده أن العقل بغير الخلق نكبة على الأمم . فهو شعلة يحملها طفل ويجب إطفاؤها بأى ثمن حتى ولو اقتضى ذلك موت حاملها . ولكن كارل ماركس جبهه بقوله : هذا ما فعله تلميذاك هتلر وموسوليني . وما تسميه خلقاً أسميه أنا جشعاً ، وما تسميه ظهوراً وصعود نجم ليس إلا تكديس الأرباح المسروقة من جيوب الوجد الحقيق للثروة .

فيسأله جيتى : من هو موجدها ؟ فيجيب كارل ماركس . هو العامل المملوك .

وهكذا يتمادى كارل ماركس فى النقاش يحتد ويتدخل فولتير ومارى ستيورت وجيتى . وإذ يقسم نابليون الدولة إلى ثلاث طبقات : القادة ، وهيئة الضباط ، والجند ، تنبرى الملكة مارى ستيورت وتضيف إليها طبقة رابعة وهى طبقة النساء . ولكن نابليون لا يعطيهن أهمية اجتماعية خارج المنزل . فى كل هذه المناقشات يكون صوت كارل ماركس عالياً .

ثم يأتى وشنطون محرر أميركا ويجتهد أن يدخل الرب فى الموضوع فيحتدم النقاش بينه وبين فولتير . ثم ينبرى نابليون ويزج البابوية والإمبراطورية فى البحث . ويكون جيتى فى كل موضوع ممسكا الميزان لتأييد الاعتدال والعدالة .

وهكذا ينتقل الجدال من الاشتراكية إلى الشيوعية إلى الدين إلى السياسة إلى جميع المذاهب الاجتماعية وأخيراً إلى الحرب . ونابليون يؤيد القوة كعامل فى الحضارة . ووشنطون يؤيد الإيمان كأساس لها .

ولما اشتد الخلاف استدعى جيتى روح أحد الشيوخ الأحياء وهو يتخبط فى نومه فى البرلمان . وسأله عن سياسة أميركا الخالية . فقال له : إننا نسير غير مرتبطين باتفاقات دائمة مع أى جزء من أجزاء العالم .

ويحتدم النقاش بين وشنطون والسناتور (الشيخ) إلى أن يتطرق إلى عصبة السلام وكانت فى رأى وشنطون ثوب تذكار لعصبة الحرب ونصحاً بالابتعاد عنها .

وهنا اشتبك كارل ماركس وفولتير فى موضوع عصبة السلام ، واقتضى الأمر التعريض بهتلر وموسوليني ، ثم بالفاشية .

ثم يستدعى جيتى روح أحد الفاشيين من الأرض وهو نائم لكى يسألوه عن مذهبه . وإذ يرى هذا الفاشى مارى ستيورت يقول : أسيدة فى حلقة رقص أو ربما كانت مغنية فى الأوبرا . والنساء فى إيطاليا يطعن موسوليني ويلدن الأطفال فى أقصى سرعة — إلى غير ذلك من الحديث عن تربية الأطفال لأنه هو مدرب للأطفال وأنه يصوغهم كما يشاء موسوليني .

ثم يستدعى جيتى روح شخص نازى ويحتدم الجدال بين هذا النازى وفولتير ومارى ستيورت إلى أن يقول لهذه الملكة أى سلوك لجور ودعارة تسلكه امرأة هنا . ما الذى تصنعينه هنا محفوفة بالرجال — اذهبى واعملى أطفالا لوطنك والفوهرر — وما قال كارل ماركس كلمة حتى كان ذلك النازى يصيح به : أيها اليهودى القذر !

ثم استدعى جيتى شيوعياً من نومه ، فجرى بينه وبين كارل ماركس جدال لا يسعه هذا المقال . فعلى القارئ أن يطالعه فى الكتاب الذى نحن بصدده . وفيما كنت أقترب فى هذا السفر النفيس إلى آخره كنت آسف أنه سينتهى وأنا لا أريد أن ينتهى لأنه كان آخذاً بمجامع لبى . فأشكر لصديق الأستاذ على بك أدهم انتقاءه هذا الكتاب ونقله إلى العربية لمؤلفه العلامة الإسبانى سفاد وردى مادارياجا

نجيب الحداد